كلمة التحرير

الفكرُ المنهجيّ في التفكير والبحث والسلوك

هيئة التحرير

ما الفكر المنهجيّ؟

عندما يفكِّر الإنسان وَفق منهج، فإنَّ من المتوقع أن يحصل له فكرٌ منهجي. وبقدر سلامة المنهج تكون سلامة الفكر. وقد زوَّد اللهُ سبحانه الإنسانَ بالأدوات اللازمة للتفكير السليم، وقد ذكر القرآن الكريم، مرات متعددة، هذه الأدوات والوظائف التي تؤديها؛ فالآذان وظيفتها السمع، والأعين وظيفتها البصر، والأفئدة وظيفتها العقل والفقه. وهي أدوات العلم والمعرفة، ومن دونها لا يستطيع الإنسان أن يعلم شيئاً: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ (النحل: ٧٨). والله سبحانه يطلب من الإنسان أن يتثبَّتَ من صحة ما يسمع؛ فليس كلُّ ما يُروى صحيحاً، وأن يتثبتَ من صحة ما يَرى بتكرار الملاحظة والتجربة، وأن يتتبَّع الدليل ويحاكم المقولات بالعقل والمنطق السليم، حتى لا تسوقه الأوهام والظنون والأباطيل بعيداً عن منهج الله. ومَثَلُ الإنسان الذي لا يستعمل هذه الأدوات لوظائفها كمثل الأنعام، بل هو أضلُّ. وسوف يسأل الله الإنسانَ عن استعماله السليم لهذه الأدوات، وسوف تشهد هذه الأدوات للإنسان أو عليه، على أساس منهج استعماله لها وغرضه من استعمالها.

فكلُّ العلوم تحتاج في بنائها واختبارها وتوظيفها إلى منهج. والفكر المنهجيُّ يميز بين مستويات المناهج، وأنواعها، ودرجة توظيفها لأدوات بناء العلم واختباره وتوظيفه؛ فثمَّةَ مناهج عامة لكل العلوم، ومناهج خاصة بكل علم دون غيره. واختيارُ المنهج المناسب للغرض المناسب هو من الحكمة التي أرسل الله الرسل ليعلِّمُوها الناس. فقد منَّ الله سبحانه على رسوله صلّى الله عليه وسلّم أنَّه أنزل عليه الكتاب والحكمة ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ (النساء: ١١٣).

والحكمة هنا كما يقول السعديُّ في تفسيره: "معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيلُ الأشياء منازلَها وترتيبُ كل شيء بحسبه."[١] كذلك منّ الله على المؤمنين ببعث الرسول الذي يعلّمهم الكتاب والحكمة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: ١٦٤)

ومن الحكمة اكتسابُ العلم بمناهجه المناسبة له، وفهمُ عناصره وموضوعاته، والتبحُّرُ فيه بأدواته، وإتقانُه في تفاصيله ومستوياته، وتوظيفُه في إصلاح النفس وإصلاح الحياة وعمران الأرض. ومن الحكمة فهمُ الأمور على حقيقتها، ووضعُها في موضعها، ولا يكون ذلك إلا وَفق المنهج الذي يناسب كلّاً منها.

والدعوةُ إلى الله تحتاج إلى فكر منهجيٍّ يوظف المنهج المناسب لحال المدعوين لتتحقق لهم الهداية المنشودة، والمنهج هو الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥). والحكمة في هذا السياق كما يقول ابن عاشور: "هي المعرفة المُحكمة؛ أي الصائبة المجرّدة عن الخطأ، فلا تطلق الحكمة إلا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وفي تهذيبهم. ولذلك عرّفوا الحكمة بأنها: معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، بحسب الطاقة البشرية بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض، ولا تخطئ في العلل والأسباب. وهي اسم جامع لكلِّ كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحاً مستمراً لا يتغيّر."[٢]

ويمكننا أن نتتبع تطبيقات الفكر المنهجيّ في تطوُّر العلوم المنقولة والمعقولة، فعند علماء الحديث فِكرٌ منهجيٌّ لقبول الرواية سنداً ومَتْناً، وعند علماء التفسير فِكرٌ منهجيٌّ لمعرفة دلالات الآيات وأحكامها ومقاصدها، وعند علماء الفلك فِكرٌ منهجيٌّ في رصد حركة الأجرام السماوية وفهم ظواهر الفصول وتعاقب الليل والنهار والكسوف والخسوف

[١] السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: سعد بن فواز الصميل، الرياض: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢هـ، ص٣٥٤.

[٢] ابن عاشور، محمد الطاهر ابن عاشور. **تفسير التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، مج٦، ج١٤، ص٣٢٧.

وغيرها، باستعمال المراصد والحسابات، وعند علماء الطب فِكرٌ منهجيٌّ يدرس عوامل الإصابة بالمرض وطرق العلاج، باستقراء الحالات والتجريب في المواد والأدوات. وهكذا في كلِّ العلوم. ويمكننا أن نتتبع كذلك ممارسة العلماء قديماً وحديثاً للفِكر المنهجيِّ.

ومع كلِّ ما يمكن أن يقال من تنويه بالمنهج والفكر المنهجيّ، فلا بد أن نقرر بصورة واضحة أنَّ الفكر المنهجي هو في نهاية المطاف فكرٌ بشريٌّ، تتفاوت فيه قدرات المفكرين والعلماء وتتنوَّعُ إبداعاتهم؛ ففي العلوم النقلية مناهج متنوعة في كلٍّ من التفسير والحديث والفقه، وغيرها من العلوم، حتى لو وجدنا بعض العناصر المنهجية المشتركة فيها. وفي العلوم العقلية كذلك مناهج متعددة، ونرى الاختلاف والتعدد أكثر وضوحاً في العلوم الاجتماعية والإنسانية، كما في علم الاجتماع وعلم النفس مثلاً. وعلى الرغم من أنَّ العلوم الطبيعية والتطبيقية تشترك في اعتماد المنهج التجريبي في الأساس، فإنَّ تطبيقات هذا المنهج تتفاوت كثيراً في تصميم مواقف الضبط التجريبي، وكثيرٌ من البحوث التجريبية واجهت نقداً شديداً وتشكيكاً بنتائجها، وكثير من الممارسات العملية المبنية على هذه المناهج قد تبين الخطأ فيها.

لكنَّ وصف الفكر المنهجي بأنَّه جهدٌ بشريٌّ يخضع للخطأ والصواب لا يقلِّل من ضرورته وأهميته، وإنَّما يلفت الانتباه إلى عدد من المسائل منها:

- أنَّ التعدد والاختلاف في الفكر المنهجي يعد أحياناً من ظواهر التنوع المحمود الذي يتناول الظاهرة من زوايا مختلفة ويجعلها أكثر وضوحاً.

- أنَّ الإنسان بحاجة إلى مواصلة الاجتهاد والتجديد لترقية الفكر البشري وتطويره سعياً للاقتراب مما نَظنُّه أكثرَ صواباً، والتخلصِ مما اكتشفناه من القصور والخطأ.

- أنَّ طبيعة الأسئلة والمشكلات التي تكون موضوعاً للبحث تكون عاملاً مهمّاً في اختيار المنهج المناسب وتكييفه، وربَّما يلزم الجمع بين عدد من العناصر المنهجيَّة التي تنتسب إلى فئات مختلفة من المناهج.

الفكرُ المنهجيُّ في البحث العلمي

العالَمَ المعاصر هو عالم المعرفة الذي تريد كثير من الشعوب أن تعيشه، حتَّى تكون مجتمعاتُها مجتمعات معرفة. والمهم في المعرفة أولاً إنتاجها، واختبارها، ثم توظيفها برُشْد وحكمة، وكلُّ ذلك فِكرٌ منهجيٌّ.

وإنتاج المعرفة يتم أساساً عن طريق البحث العلمي. وقد عَرفتْ مناهجُ البحث العلمي من الأساليب والأدوات والإجراءت الفنية، ما أصبح مادةً دراسيةً في مؤسسات التعليم في مراحله المختلفة، وما امتلأت به كتب مناهج البحث المتداولة بجميع اللغات. ولكنَّ المهمَّ هو وضع هذه المناهج ضمن خريطة فكرية مناسبة، تبدأ حدودُها الزمنية قبل البدء بالبحث، (ما قبل المنهج)، وتتواصل عناصرُها مع خطوات البحث حتى انتهائه؛ بل إنَّ حدودها لا تنتهي إلا ببداية بحثٍ جديد، وبهذا تنمو المعرفة وتتطوَّر عن طريق تواصل البحث العملي في المجالات العلمية والمعرفية، ومع تطور الخبرات وتوالي الأجيال.

فهل ثمَّة جديدٌ في منهجية البحث مختلف عمَّا عرفته مناهج البحث من هذه الأساليب والأدوات والإجراءات؟

من المفيد أن نختبر ما قد يكون جديداً في "الفكرِ المنهجيّ" الذي يضع هذه المناهج في موضعها المناسب على مستويات مختلفة، وقد حدّدنا في كلمة تحرير العدد السابق (٩٢) ستَّةً من هذه المستويات: الباحث؛ والمؤسسة، والتخصص، والمجتمع، والأمة، والإنسانية، وأشرنا إلى أن الباحث المسلم يوازن بين حاجة هذه المستويات ومتطلباتها التي ربَّما تتزاحم، فيحاول استيعابها بقدر استطاعته، ثم يتجاوز إنجازه في عمله الدنيوي هذا سعياً إلى أجر الآخرة.

وإذا كانت مناهج البحث قد وصلت إلى قدر من الاستقرار، مع تطوُّرٍ محدود في الأساليب والأدوات والإجراءات، يشهد لهذا الاستقرار والتطوُّر المحدود إعادة استعمال كثير من مؤلفات مناهج البحث وطباعتها مرات عديدة عبر عقود زمنية متتالية، فإنَّ الفكرَ المنهجيَّ لا يعرف الثبات والاستقرار، وإنَّما يتغيَّر ويتطوَّر، ويعكس في ذلك حالةَ الباحث، وحالة العلم، وحالة المجتمع، وأنّى لهذه الثلاثة أن تثبت على حال؟!

في الجامعات أساتذةٌ يمارسون البحث من أجل الترقيات العلمية، وتتيح لهم جامعاتهم تفرّغاً علمياً، ليس لشيء غير اكتساب جديد من المعرفة عن طريق البحث، وفي الجامعات طلبةٌ يحصلون على درجات علمية عليا، ليس إلا عن طريق البحث.

وفي معظم الوزارات والمؤسسات أقسام ودوائر متخصصة للبحث في مجالات اهتمام هذه الوزارات والمؤسسات.

وفي معظم المجتمعات مؤسسات بحثية متخصّصة ليس لها عمل إلَّا البحث.

ويقاس تقدم الدول بنسبة ما تنفقه من موازناتها على البحث العلمي.

وفي كل مجال من مجالات المعرفة البشرية متَّسعٌ للنموِّ والتطوُّرِ عن طريق البحث، فثمة بحث علمي في الطب، والفيزياء، والبيئة، والاقتصاد، والتربية، واللغة، ومقاصد الشريعة، وفقه المواطنة ... وهكذا في كل العلوم الرئيسية وفروعها.

وتستطيع أن تتحدَّث باستفاضةٍ وإسهاب عن المجلات العلمية المتخصصة في نشر البحوث، والجوائز العلمية التي تُمنح للبحوث المتميزة في بعض المجالات، على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية. والمؤتمرات التي تنظَّم لعرض نتائج البحوث يصعب حصرها.

ونسمع في كل يوم عن مكتشفات وصناعات وتقانات جديدة في مجالات الطب والفلك والاتصال والتواصل، وسائر مجالات الحياة، وكلُّها كما هو معروف نتائج لبحوث علمية متواصلة.

ومع كلِّ ذلك فإنَّنا لا ننسى كم من البحوث العلمية تبيَّن أنَّها مسروقة، أو أنَّ نتائجها مزوَّرة، أو أنَّ بياناتها نُظِّمت وحلِّلت (وطُبِخَتْ) للوصول إلى نتائج محدَّدَةٍ تخدم أغراضاً سياسيةً أو تجارية أو حتى أيديولوجية-فكرية!

وكم من البحوث المُتْقَنة، أجراها أساتذةٌ أو طلبة دراسات عليا في الجامعات، ليس لها قِيمة نظرية أو عملية! وكم من البحوث التي لا تتصف بشيءٍ من الإتقان حصل أصحابها على الترقيات والدرجات!

وهذا الذي نتحدَّث عنه لا يقتصر على مجتمع دون آخر، فلا يخلو مجتمعٌ من مجتمعات العالم من شيءٍ من هذا أو ذلك، ولكن بدرجاتٍ متفاوتة؛ إذ يُعدُّ الخلل في

البحوث فضائح عابرة للمجتمعات، ومن الإنصاف أن نستدرك فنقول إنَّ ممَّا يُقلِّل من شأن هذه الفضائح وغيرها من المشكلات المشار إليها كثرة البحوث الجادَّة والمفيدة، والتقدُّمُ الذي تحقِّقه بعض المجتمعات عن طريق هذه البحوث الجادّة. بينما يُعدُّ الضعف والخلل في إجراء البحوث أو توظيف نتائجها الشأنَ الغالب في مجتمعات أخرى، يؤكِّده التخلُّف والفساد في هذه المجتمعات الأخرى.

وقد نظمت لقاءات ومؤتمرات كثيرة عن واقع البحث العلميّ في البلاد العربية، أشارت نتائجها في كثير من الأحيان إلى تدنِّي مستوى الاهتمام بالبحث في هذه البلاد، وانخفاض الموازنات المالية المخصصة للإنفاق على البحث العلمي، والمشاركون في أيِّ لقاءٍ من هذا النوع يتفاعلون مع القضايا المعروضة للبحث والمناقشة، وكلٌّ منهم ينطلق مما يعرفه عن البحث العلمي في بلده ومؤسسته. ومع أنَّنا نقرِّر دائماً أنَّ علاجَ أيِّ مشكلة يتحدَّد في ضوء التشخيص الصحيح للمشكلة، لكنَّنا في معظم الأحيان نستهلك الوقت والجهد في اللقاءات والمناقشات العلمية في وصف المشكلات وتشخيصها، ولا نعطي للعلاج إلا القليل!

مفاهيم المنهج في التفكير والبحث والسلوك

مفاهيم المنهج والمنهجيَّة والبحث والدراسة ليست مفاهيم لغويةً وفنِّيَّة وحسب، وإنَّما هي مفاهيم فكرية عميقة ترتبط برؤيتنا إلى العالم ووظيفتنا فيه. فإذا كانت رؤية العالم تُحدِّد العناصرَ المكوِّنة لنظام الاعتقاد ونظام القيم ونظام المعرفة، وما بين هذه النظم وعناصرها من علاقات، وإذا كان النظامُ المعرفيُّ يحدِّدُ للإنسان مفهومَ المعرفةِ التي يكتسبها البشر وبِنْيَتَها وأنواعَها، ومصادرَ استمدادها، وأساليبَ اكتسابها، فإنَّه يحتاج إلى إطارٍ مرجعيٍّ لكلِّ ذلك، وهو ما نُسميه "منهجية التكامل المعرفي" لتفكير الإنسان المسلم، وعمليات بحثه وأنماط سلوكه. ومنهجية التكامل المعرفي هذه ليست شيئاً طارئاً في الإنسان المسلم، وليست أمراً مُستحدَثاً، فنحن نفهمها بالاعتماد على النقل الصحيح، والعقل الصريح، والطبائع الفطرية، والوقائع الموضوعية.[٣]

[٣] ملكاوي، فتحي حسن. **منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية**. عمان، الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ٢٠١٦م، انظر بوجه خاص المخطط ص١٩.

وترتبط مفاهيم المنهج والمنهاج والنهج بحركة الإنسان وتعامله مع الأشياء والأحداث والظواهر، وهي حركةٌ واعيةٌ تبدأ وتسير في اتِّجاه، لتنتهي إلى نتيجة، وفيها النجاح أو الفشل، وفيها الهدى أو الضلال. ومع أنَّ القرآنَ الكريمَ قد ذكر المنهاج –بهذا اللفظ– مرةً واحدةً،[٤] فقد جاء معنى المنهاج في القرآن الكريم في ألفاظ متعددة، فالمنهاج هو السبيلُ، والطريقُ الواضح الموصل إلى المورد، والسُّنَّةُ المتَّبعة، والصِّراطُ المستقيم، وهو الحق المبين الذي يميز بين الهدى والضلال، فمن كان على المنهاج فهو على هدى وبصيرة، ومن تنكَّبه فهو في الضلالة والعَمَي.

• فالمنهج في الأساس منهجٌ في التفكير، قبل أن يكون أيَّ شيءٍ آخر، فليس ثمَّة سَعْي بشري لا يسبقه ويرافقه تفكير، وفق منهج معيَّن. والفِكْرُ والتَّفكيرُ والتَّفكُّرُ عملياتٌ عقلية تختصُّ بالنوع الإنساني، وتميّزه عن الكائنات الأخرى، ويتمُّ في هذه العمليات تذكُّر ما سبق من نتائج هذه العمليات لبناء نتائج جديدة، وفيها تدبُّرُ ما يُبنى على هذه النتائج من أعمال وممارسات، من أجل أن يتصور الإنسان مآلاتها في العاجل والآجل. والتَّفكِيرُ والتَّفكُّرُ والتَّفَاكُرُ يقع من الناس مثنى وفرادي، تشاوراً بين اثنين، وتفكيراً مستقلاً فردياً، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ (سبأ: ٤٦) وتقع شورى في الجماعة من الناس. وعمليات التفكير والتفكُّر والتدبُّر والتذكُّر وفق منهج سليم تُخرِجُ الإنسان من التبعية والإمَّعِيَّة وثقافة القطيع والانقياد الأعمى، وتُعين على الاجتهاد والإبداع والتجديد، فيكون الاكتشاف والنموّ والتطوُّر والتقدُّم.

وتتنوَّع مناهج التفكير وتتعدّد ضمن فئات ومعايير مختلفة، فمنه: التفكير البدهِيُّ والمنطقيّ، والسطحيّ والعميق، ومنه: التفكير السببيّ والمقاصديّ، ومنه: التفكير الاستراتيجيّ والنظر في البدائل، ومنه: التفكير الاستشرافيّ المستقبليّ، ومنه: التفكير الناقد والتفكير الإبداعيّ، وهكذا. ولو تأملنا نصوص القرآن الكريم والسنة النبويَّة فإننا سنجد شواهد وأمثلةً على هذه الأنواع.

• والمنهج هو منهجٌ في البحث، يسبقه ويرافقه التفكير؛ وَفْقَ طرق وإجراءات وأخلاقيات توافقت عليها الجماعة العلمية في كلِّ تخصُّص، وللباحث المسلم فيها نصيبُه

[٤] وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨)

من التوظيف والاستثمار، وله، وعليه الإسهام في التطوير والتميّز والإبداع. والبحثُ فعلٌ بشريٌّ يتحدّد في ضوء عِلْم، ويحتاج بذل جهد، ويبتغي الوصول إلى هدف. فهو جهدٌ عقليٌّ وعمليٌّ هادفٌ، وفق منهج مناسب، لتحصيل علم ومعرفة موثوقة، للإجابة عن سؤالٍ أو حلِّ مشكلة، أو تطوير ممارسة. والعمل البحثي يقوم به الفرد، والمؤسسة، والمجتمع.

ونُميّز في مناهج البحث بين فئات مختلفة، وفق معايير تصنيف هذه المناهج، فثمَّة مناهج بحثٍ تاريخية ووصفية وتجريبية وفق معيار الزمن، ومناهج بحثٍ كميَّة وكيفيَّة وفق معيار نوع البيانات، ومناهج بحث نظريَّة وتطبيقية وفق معيار الهدف، وهكذا.

• والمنهج هو كذلك منهج في السلوك والممارسة والعمل، عندما يتجاوز هذا العمل العادة المستحكمة في سلوك الإنسان، هذه العادة التي تجعل الإنسان أحياناً يمارس العمل دون وعي. فالمنهج يقوِّم سلوكَ الإنسانِ وممارسته لأعماله حين يكون ذلك على هُدَىً وبصيرة، وحين يستقيم تفكيره في هدف العمل وطريقته، وحين يوظِّف ما هو متاح من معرفة موثَّقة قاد إليها البحث الجادُّ.

ممارسة العمل وفق منهج يستدعي من الإنسان إرادته لهذه الممارسة، وذاكرته عن متطلبات ذلك العمل، ويقى عقله متنبِّهاً لضمان نتيجته المرجوَّة. أما العادة المستحكمة فتأخذ صاحبها في عمل لا تتحكم فيه الذاكرة والإرادة والمراقبة العقلية.

وممارسة العمل وفق منهج يدفع عن الإنسان حالات الانفعال التي يصل فيها حبُّ العملِ أو كراهيته إلى حالة من القلق النفسيّ، يُسْقِطُ فيها الإنسانُ بعضَ القواعد الأساسية في العمل نسياناً أو قصداً.

أجل! أمَّتُنا اليوم أحوج ما تكون إلى الوعي على المنهج، وبناء فكرها المنهجي وممارسته في التفكير وفي البحث في السلوك.

وبالله التوفيق.